

تداولية الخطاب التوجيهي في خطبتي السيدة زينب عليها السلام في الكوفة والشام

الاء محمد لازم

جامعة بغداد، كلية التربية / ابن رشد، قسم اللغة العربية

الملخص

فكانت لبلاغة السيدة زينب عليها السلام الدور الأكبر في استثمار قواميس اللغة التي تولدت منها لغة خطبتها والتي تراوحت بين السهولة والبساطة أحياناً وبين القوة، والايحاء أحياناً آخر، وذلك بحسب الظروف، والسياق الذي أنتجت فيه ومنه، فاللغة كانت وسيلة فعالة في التأثير، والاقناع، والهدف في نجاح عملية التواصل.

هذه المفاهيم والمعطيات مجتمعة زادت من اصرارنا على قراءة خطب السيدة زينب عليها السلام، محاولين البحث عن مدى قدرتها على تحقيق عملية التواصل بين الأوساط المتلقية كما آرتأينا إلى تناول خطبتها، وتحليلها بطريقة مغايرة عبر التعمق في دلالاتها، ومقاصدها، وحقيقة الوظائف التي تؤديها اللغة فيها، وأهدافها التواصلية من خلال التركيز على بنية اللغة، والوظائف الأساسية التي تؤديها باعتباره خطاباً لا يتجسد إلا عبر اللغة كونها العصب في أحداث التواصل بين المبدع والمتلقي.

مضمون البحث:

المقدمة:

لقد تهيأ للسيدة زينب الحوراء بنت أمير المؤمنين U من أسباب الشرف، والرفعة، والعظمة، والشجاعة، والبلاغة، والصبر والعنفوان، ما جعلها مؤهلة لتقوم بدورها القيادي، والإعلامي بعد واقعة الطف، فهي سليلة الدوحة المحمدية إلى جانب ما وهبها الله Y من الذكاء الفطري، وقوة الحافظة، وشدة الفطنة ما جعلها تنبغ في حفظ القرآن، وتفسيره، وحفظ ما أثر من عائلتها المطهرة، فآثر هذا في تكوين شخصية تلك الصابرة الجليلة فجعلها قوية الحجة، فصيحة اللسان، حسنة المنطق، بليغة الكلام، عميقة التأثير فضلاً عن شجاعتها، وإقدامها لتؤسّر للإنسانية نموذجاً للمرأة التي قهرت الموت بتحملها المصائب وقهرت الطغاة والجبابرة، فأخرستهم بمنطقها وحجتها.

كانت واقعة الطف تمثل أوج مراحل الصراع بين (قيم الخير ومثله)، والشر وادعاءاته إذ تعرضت الأمة الإسلامية في تلك الفترة إلى هجمة شرسة تستهدف قيمها ومثلها، وأصبح الواقع الإسلامي يشهد مواجهة خطيرة مع تيار الضلال، والانحراف تكاد تنتهي إلى نتائج كارثية، وفي مثل هذه الظروف البالغة الحساسية كان من الطبيعي أن تحدث المواجهة بين المبدئية، والشرعية ممثلة بالإمام الحسين U، وأهله وأصحابه، وبين الردة والانتهازة ممثلة بيزيد بن معاوية، ومن معه من المرتزقة والسفاحين خاصة وإن الإمام الحسين U يعد المعني الأول بحماية القيم، والمبادئ الإسلامية لأسباب جوهرية عديدة في مقدمتها الدور الجهادي المعد للقيام به في ضوء مكانته الروحية المعروفة، والتي تمثل امتداداً طبيعياً للنبوة ممثلة بجدة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، والإمامة الممثلة بأبيه، وأخيه عليهما السلام.

فكانت حتمية المواجهة تمثل امتداد للأسباب والدواعي التي ساهمت في المواجهة القديمة بين قيم الخير والشر، الشجاعة والتخاذل، قيم الوفاء والغدر، قيم الصبر والجزع، الإيمان والكفر منذ بداية الخلقية وقصص المواجهة بين رموز الحق الممثلة بالأنبياء، ورموز الكفر والضلال وتستمر مع استمرار الحياة لتتحول قيم التضحية والفداء الحسينية شاخصة في ضمير الأجيال تُستمد منها المواقف، والمعاني الضرورية للدفاع عن كرامتها، ومعتقداتها، وتنهل من ينابيعها دروساً في المقاومة، والتضحية من اجل الاستقامة، ومواجهة الانحراف.

ليجسد التفاعل والتواصل مع الثورة الحسينية مدى نقاء وطهارة، وقوة الموقف الحسيني الرافض لعناصر الظلم، والتهميش والضلال في الموقف اليزيدي، وبين التوجه الثابت على مدى التاريخ في معارضتها للشركونه القوة التي تتعارض مع آمالها وتطلعاتها وتهدف إلى القضاء على قيمها ومعتقداتها.

الدور الإعلامي للسيدة زينب عليها السلام في واقعة الطف

إن للمرأة أدواراً عظيمة في المجتمع، وهي ادوار متميزة جداً ومن بين تلك الأدوار دور زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام في واقعة الطف فهناك كثير من الناس يتساءلون لماذا أخرجها الحسين U إلى كربلاء، وهي في عصمة رجل هو عبد الله بن جعفر؟

وذلك لأنه U كان يعلم أنها ستقوم بأدوار لن يقوم بها احد غيرها، ومن أهم تلك الأدوار الدور الإعلامي الذي قامت به عليها السلام بعد معركة الطف، التي لولاها ما عرف الكثير عن نهضة الحسين U فقد حمل التاريخ صوت زينب معه وهي تنقله من ساحة المعركة إلى مجلس ابن زياد الكوفة، ومجلس يزيد في الشام ومن ثم إلى المدينة، وقالت في خطبتها في أهل الكوفة ((أما بعد يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبيكون وتنتخبون، فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي رفضت غزلبا من بعد قوة انكاثاً تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً...))⁽¹⁾.

هذه هي زينب عليه السلام التي يعبر عنها أحد الشعراء بقوله⁽²⁾:

يا	ابنة	المجد	في	ذرا	آل	فهر	وابنة	الوحي	في	مدى	جبريل
يا	نسيجاً	به	مزا	علي	وهدي	احمد	وزهو	البتول			

وفعالاً هكذا كانت (سلام الله عليها) يقول الشيخ الصدوق كانت لها نيابة خاصة عن الحسين U⁽³⁾، السبب الذي أخرجها من بيتها، وهي زوجة عبد الله بن جعفر؟ خرجت من بيتها مع أولادها الاثنتين (محمد) و(عون) اللذان قتلوا في الطف.

خرجت زينب عليها السلام وأناط بها الحسين U مجموعة من الوظائف منها قيادة الحملة مع ما فيها من الرجال والنساء، فالحسين يوظفها لدور الإسلام في واقعة الطف، فترى موقفها في ليلة العاشر من المحرم، وموقفها في صبيحتها، وموقفها بعد المعركة في مجلس ابن زياد ثم في مجلس يزيد، نراها تمارس دورها الإعلامي على أتم وجه، وهو دور بطولي شرحت فيه للناس ما صنع الأمويون، ثم مارست ذلك الدور في المدينة، مما اضطرهم لأن يخرجوها من المدينة وينفوها منها إلى مصر على رأي بعض الروايات، أو إلى الشام على رأي البعض الآخر⁽⁴⁾.

زينب محفورة في قلب كل مسلم يقول الشيخ الصدوق دخلت على الحسين U ليلة العاشر، وهو يقرأ القرآن، فوضع القرآن على المحراب، وتوجه إليها، واشترك معها في المصائب، فكانت شريكته في الكفاح، فعندما رجع الحسين، ولم يبق احد يجلب له فرسه، أو يناوله سلاحه، وقف بباب الخيمة، وهو يقول: ((من يقدم لي جوادي؟)).

فمرت زينب بتناقل وجاءته بالجواد، وهي تتمتم بهدوء، وتقول: ((أي أخت تقدم لأخها فرس المنية ما أجلدني، وما أقسى قلبي)).

جاءت بالجواد فلمح الحسين U في عينها دمعة، فأدناها إليه قال لها ((أخية تعزي بعزاء الله لا يذهب بحلمك الشيطان اعلمي أن أهل السماء لا يبكون، وأهل الأرض يموتون، ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة، أخية تمسكي بحبال الصبر))⁽⁵⁾. فكانت لبلاغة السيدة زينب عليها السلام الدور الأكبر في استثمار قواميس اللغة التي تولدت منها لغة خطبتها والتي تراوحت بين السهولة، والبساطة أحياناً وبين القوة، والايحاء أحياناً آخر، وذلك بحسب الظروف، والسياق الذي أنتجت فيه ومنه، فاللغة كانت وسيلة فعالة في التأثير، والاقناع، والهدف في نجاح عملية التواصل.

هذه المفاهيم والمعطيات مجتمعة زادت من اصرارنا على قراءة خطب السيدة زينب عليها السلام، محاولين البحث عن مدى قدرتها على تحقيق عملية التواصل بين الأوساط المتلقية كما آرتأينا إلى تناول خطبتها، وتحليلها بطريقة مغايرة عبر التعمق في دلالاتها، ومقاصدها، وحقيقة الوظائف التي تؤديها اللغة فيها، وأهدافها التواصلية من خلال التركيز على بنية اللغة، والوظائف الأساسية التي تؤديها باعتبارها خطاباً لا يتجسد إلا عبر اللغة كونها العصب في أحداث التواصل بين المبدع والمتلقي.

والكشف عن وظائف اللغة في خطبتها، وتحليل الوسائل، والأدوات اللغوية التي تجسدت فيها لتحقيق التأثير، والاقناع من خلال استثماره بلاغتها عليها السلام في نسج خطب تحمل قابلية التوجيه والتأثير.

وكانت هناك عدة تساؤلات طرحتها نفسها أثناء قراءتنا... فيها:

- كيف اسهمت اللغة والدلالة في تحقيق فعل التواصل.

- ما علاقة الوظائف اللغوية والاستعمال.

- الكفاءات التي استندت عليها السلام الشاعر في تحقيق مقاصدها.

- ما مدى تفاعل المتلقي مع هذه المقاصد.

- هل للسياق دور في تحقيق فعل التواصل.

- ما الوسائل والأدوات الإجرائية التي توختها السيدة زينب عليها السلام في تحقيق هدف الاقناع والتأثير.

وللإجابة عن هذه الإشكالية كان لا بد من مناقشة موضوع الخطاب لما فيه من تجسيد واضح للغة، ووظائفها مع مراعاة المقاصد في الخطاب بما أننا نتعامل مع مجتمع يركز أساساً على اللغة في الخطاب مهما كان جنسه، مستثمرين ماتقدمه التداولية من آليات تسمح

بتطبيقها على الخطب والوصول إلى الوظائف التي تؤديها اللغة فيها، كونها نص لغوي مبدع نتج عن ذات لغوية مبدعة تجسدت في شخصية السيدة زينب عليها السلام .

- مفهوم الخطاب:

الخطاب، والمخاطبة مراجعة الكلام، ويقال مخاطبة بالكلام مخاطبته، وخطاباً وهما يتخاطبان، والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة، والخطبة مصدر الخطيب (6)، وهو الكلام الذي يتكلم به ويقوم على مبدأ المشاركة في كونه يقضي وجود طرفين (مخاطب) و (مخاطب) ويدل على توجيه الكلام لمن يفهم الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسم، ليدل على ما خوطب به وهو الكلام⁽⁷⁾.

والخطاب يوجه لمن يملك القدرة على فهم الكلام الموجه إليه، والخطاب والكلام، والتخاطب، والنطق واحد في حقيقة اللغة به يصير الحي متكلماً⁽⁸⁾، ومثلما يقوم على مبدأ المشاركة، يقوم على مبدأ القصد، وهو أن المتكلم قاصداً إلهام المستمع كما ينبغي على المستمع أن يكون قادراً على فهم قصد المتكلم، وقد حدد الأمدي ذلك بوضوح حين عرف الخطاب بأنه (اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إلهام من هو متبرئ لفهمه)⁽⁹⁾، إذ يحدد اللفظ أساس الاستعمال اللغوي لتحقيق قصد الفهم، ولا يعتمد على الحركات، والإشارات كونها علامات غير لغوية لا تحقق قصدية الفهم من وراء الخطاب وهذا ما أكده قوله تعالى عن داود (U): [وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ]⁽¹⁰⁾.

يعدّ الرازي فصل الخطاب من الصفات التي أعطاهما الله تعالى لداود، معتبراً إياها من علامات حصول الإدراك، والشعور الذي ميز الإنسان عن سائر الكائنات على الرغم من اختلاف الناس في مراتب التعبير عما يجول في الضمائر، منهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه، والآخر يتعذر عليه التوصل، والإفهام لذلك كل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار المنطقية في حقه أعظم وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عما يجول في خاطره، ويحضر في خياله حتى لا يختلط شيء بشيء، ويفصل كل مقام عن الآخر⁽¹¹⁾.

وقد تنوعت، وتعددت مفاهيم الخطاب بحسب تنوع، واختلاف الدراسات اللغوية، والتواصلية الحديثة، فأصبح للخطاب مفهومين، الأول: إنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير، بإفهامه قصداً معيناً. والآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة، إذ تناول الباحثون مفهوم الخطاب كلاً حسب نظريته وتوجهه، منهم من انطلق من ثنائية سوسير اللغة والكلام، للتفريق بين اللغة بوصفها النظام السابق على الخطاب فهي موجودة بالفعل، وبالتالي هناك فرق بين العلاقة اللسانية بين مستوى اللغة ومستوى الخطاب، إذ تكون العلاقة في اللغة دائماً مدلول واحد، في حين تعدد مدلولاتها في مستوى الخطاب لأنه ميدان استعمالها وتداولها.

أما الخطاب بوصفه ما يتجاوز الجملة فهو المفهوم الغالب في الدراسات اللغوية الحديثة، إذ بينت (ديبورا شيفرن) أن هذا الاختلاف في تعريف الخطاب ناجم عن تعدد النظرة المنهجية في الدراسات اللغوية لمفهوم الخطاب بوصفه واحد من ثلاثة (أكبر من الجملة)، و (استعمال أي وحدة لغوية)، أو (بوصفه الملفوظ)⁽¹²⁾.

فالخطاب كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إلهامه مقصوداً مخصوصاً مع تحقيق أهداف معينة، وتسهم عدة عوامل في بلورة عملية توصيل الخطاب هي المرسل، والمرسل إليه، والعناصر المشتركة متمثلة بالعلاقة بين طرفي الخطاب والمعرفة المشتركة، والظروف الاجتماعية العامة بما تفرضه من قيود تؤثر على عملية التوصيل⁽¹³⁾، ويقوم أي خطاب على هذه العناصر الأساسية، وما يحيلها إلى عناصر سياقية تجعل منه ممارسة تجري تداولياً مما يحول دون ثبات سماتها فالمرسل متجدد، والمرسل إليه متجدد كذلك.

الخطاب التوجيهي:

يهدف المرسل لتبليغ قصده من وراء الخطاب عبر هذه الاستراتيجية وأن يفرض قيوداً على المرسل إليه وإن كان قيوداً بسيطاً، وأن يمارس فضولاً خطابياً عليه وتوجيهه لمصلحته بنفعه، وأبعاد الضرر عنه حتى لو أدى هذا إلى التدخل، والضغط على المرسل إليه الذي يكون هنا على صنفين، الأول: المتخيل وهنا يكون المرسل على معرفة سابقة بالمرسل إليه، ويتصف خطابه بالعمومية، والديمومية، والمناسبة لكل زمان، والثاني هو الحاضر عند التلفظ بالخطاب فيكون التوجيه مقتضراً عليه لضيق السياق الذي يدور فيه الخطاب⁽¹⁴⁾.

ويعد التوجيه في الخطاب أكثر من مجرد فعل لغوي حسب تصنيف جاكسون إذ يسمي وظيفة التوجيه في اللغة بالإيعازية، أو الندائية⁽¹⁵⁾. ولكي تُحقّق هذه الإستراتيجية فعلها التوجيهي في النظام اللغوي لا بد أن تتوفر مقومات لدعم عملية التوجيه منها (سلطة المرسل) ولكون السيدة زينب عليها السلام كانت تحمل تلك الصفات التي جعلتها مؤهلة للتوجيه بحكم الميزة التي تحملها فهي بنت السيدة فاطمة عليها السلام، وأمير البلغاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مما أعطاه دور كبير تحمله على عاتقها لحماية الأثر الفكري، والعقائدي، والديني، الأثر الذي لا زالت تهل منه البشرية، وتحقق به المنفعة، إذ أن العلاقة السلطوية بين المرسل، والمرسل إليه مؤشر مهم لنجاح فعل التوجيه.

وكان لهذه الإستراتيجية التوجيهية امتداد في البلاغة العربية إذ يذهب البلاغيون أن الكلام يقسم إلى طلب، وغير طلب، ويشمل الطلب الاستفهام، والتمني والنداء، وهي من الأفعال التوجيهية، إذ يعرف السكاكي (الطلب نوعان، نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول... ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول)⁽¹⁶⁾.

الوسائل اللغوية في الخطاب التوجيهي:

وفرت اللغة مجموعة من الوسائل اللغوية لتوجيه الخطاب، وبحكم بلاغة السيدة زينب عليها السلام النابعة أساساً من بلاغة أبيها أمير المؤمنين، وقدرتها اللغوية، وبراعتها الأدائية في توجيه الخطاب مكنها من استثمار وسائل اللغة، وأمكانياتها لتوجيه المجتمع وكشف المخطط اليزيدي المنحرف، وأمأطة الثام عن قضية الثورة الحسينية الهادفة إلى إصلاح المجتمع، وبناء الإنسان وفق قيم الإسلام الصحيحة، ومن أهم ما أستثمرته السيدة زينب عليها السلام من إمكانات اللغة هي:

1- الأُمُر:

يرى السكاكي أن الأُمُر (طلب لحصول ثبوت متصور)⁽¹⁷⁾، وعرفه بعض الأصوليين بأن (حقيقة الأُمُر الدعاء إلى الفعل)⁽¹⁸⁾ والسيدة زينب عليها السلام أرادت توجيه القوم بالوعظ، والإرشاد، والنصيحة والتبصير، وإلقاء الحجة عليهم، هذا إذا ما علمنا أن خروج الأُمُر في الخطاب إلى التوجيه لا يتحقق بمجرد التلفظ به، وإنما يجب أن يقترن بسلطة المرسل، ولا يقصد بالسلطة هنا بمفهومها الضيق، وإنما اتسعت لتشمل كل ما يملكه المرسل من علم ومعرفة مما يزيد من رتبة المرسل لهذا عدَّ العلماء أن وجوب تحقق الأُمُر مرتبط بالصفة والسلطة، وهذا ما يؤكد السكاكي بقوله لا شبهه في أن طلب المتصور على سبيل الاستعلاء، يورث إيجاب الاتيان على المطلوب منه⁽¹⁹⁾. وقد تجسد التوجيه بالأُمُر في خطبتها حين خاطبت يزيد، وهو منحنياً على ثنايا ابي عبد الله عليه السلام سيد شباب اهل الجنة، وهو ينكها بمخبرته (قد نكأت القرحة، واستاصلت الشاقة بإراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وسلم، ونجوم الارض من ال عبد المطلب، وتهتف بإشياخك زعمت أنك تنادهم فلتردن وشيكا موردهم، ولتودن أنك شللت ولم تكن قلت ما فعلت ما فعلت، اللهم خذ بحقنا وانتقم من ظالمنا، واحلل غضبك ممن سفك دماءنا وقتل حماتنا)⁽²⁰⁾، فجملة (شللت ولم تكن قلت.....) كانت سبباً في تحقيق رجاء حدوث الفعل (تودن).

وبما أن السيدة زينب عليها السلام كانت تملك مقومات السلطة الممثلة بقوة الحجة، وبلاغة الأسلوب، ومتانة العبارة، وسعة المعرفة فكان لخطابها الأثر في التوجيه والإرشاد.

2- الاستفهام:

للاستفهام أدوات منها (الهمزة وأم وهل وما ومن وأي ... وهذه الأدوات ثلاثة أنواع أحدها يختص طلب حصول التصور وثانها يختص طلب حصول التصديق وثالثها لا يختص)⁽²¹⁾، والاستفهام في التوجيه يوظفه المرسل للتلميح إلى قصده ويستدعي التلفظ بإجابة صريحة، وقد ضجت خطبة السيدة زينب عليها السلام بالكثير من علامات الاستفهام التي كشفت عن قدرة السيدة زينب على خلق سياق تترابط فيه هذه العناصر المعجمية معتمدة على حدسها اللغوي، وعلى مخزونها اللغوي الذي ورثته من بلاغة آل البيت عليهم السلام. إذ تقول منددة بيزيد (أظننت يا يزيد أنه حين اخذت علينا بأطراف الارض وأكتاف السماء... واصبحنا نساق كما يساق الاسارى إن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة) وقولها (هل من العدل يا ابن الطلقاء تحريك حرائرك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا؟ وبهتك ستورهن وبيدي وجوههن في معرض الاعداء من بلد إلى بلد، ليس معهن من حماهن حميم ولا من رجالهن ولي. وقولها (أنى ترحضون قتل سليل النبوة، ومعدن الرسالة وسيد شباب اهل الجنة، ومنار حجتكم.. فتعساً ونكساً لقد خاب السعي) (22) مما زاد في اشتعال دلالة التحدي وكشف حجم المؤامرة التي نسجت.

وتبرز زينب الكبرى قطرة من بحر سياسة أبيها، سياسة التقوى، لتحمي في خطبة واحدة كل الدعايات الأموية التي استمرت خمسين سنة. وهي وحيدة خلال لحظات أو على الأقل خلال رحلة مأسورة تهدم بيتاً بناه بنو أمية خلال خمسين سنة بجيوشهم وجواسيسهم وحروبهم وحراسهم ودهائهم وفي غاية حريتهم. وهذا يتبين لها أن العاقبة للتقوى وأن كذلك يضرب الله الحق بالباطل فيدمغه فاذا هوزاهق.

هي في مجلس يزيد تخرق الحجب التي نسجها الباطل حول الحق حتى اختفى الحق وبرز الباطل. فتعرف أهل البيت بأسلوب نقب الباطل، وفي سياق الزمان علمها ابوها حين قال: ((فلأنقبن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه))، هي بنقب يزيد وبني أمية وشرح أحوالهم السابقة مع الإسلام ورسول الله، تخرج بحق أهل البيت:، فليس يزيد إلا ابناً لمن لفظ فوه اكباد الشهداء، ونبت لحمه بدماء السعداء فتلك نفوس طاغية واجسام محشوة بسخط الله ولعنة الرسول، ويزيد انما هو فرخ في عش شيطان بني أمية. هكذا تأتي زينب بنياهم من القواعد وتطلع شجرة بني أمية بكل جنورها إن كان لها جنور. فأى السياستين أقوى؟ التقوى أم الطغي؟ وأقامت زينب عليها السلام موازنة بين حزب الله الاتقياء وحزب الشيطان الطلقاء. وأسباط الأتبياء، ولسليل الأوصياء ونسل العهرة الفجرة، والشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة الملعونة. وقد

قالت في يزيد: قد عَشش الشيطان وفرخ، ومن هناك مثلك درج ما درج. والحسين عليه السلام الذي قتله يزيد ويفخر الآن بضربه على ثناياه ويفصح كفره بلسانه غير متحوب ولا مستعظم، فهو سيد شباب أهل الجنة وابن يعسوب دين العرب وشمس آل عبد المطلب. آل البيت هم حمال الوحي ونور الله الذي لا يطفى ويزيد هو الساعي لإطفاء نور الله ومحو وحي الله. فترفع زنب. بهذا الحجاب عن حزب الشيطان وإتباع بني أمية من الطواغيت وتنتهي خطبتها بكلمات تمتلئ إيماناً و يقيناً بالمستقبل الذي يضمن توعية المسلمين في ظل الآيات التي تكشف حقيقة الإسلام وأهل البيت .: فتقول: ((إلى الله المشتكى والمعول، وإليه الملجأ والمؤمل)). فصيغة الاستفهام والاستفهام الإنكاري التي وظفتها في خطبتها شددت أذهان المخاطبين، وألزمتهم بالتفكير، والبحث عن إجابات محددة رغم معرفتهم المسبقة بهذه الإجابات. إذ انتقلت السيدة زنب عليها السلام إلى الحوار النابع من تراصف أسلوب الاستفهام لتلقي عليهم الحجة وتعظيم وتوجيههم ولا يملكون جواباً.

3- التوجيه بذكر العواقب:

وهي من الآيات التي استثمرها السيدة زنب عليها السلام لتوجيه القوم. وهذه الآية حسب ما يرى الشهري ليس حكراً على ميدان معين أو مرسل خاص بل هي ملك كل من يرى أنها تخدم سياق خطابه (23). كما في قولها (يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر لإرقات العبرة، ولا هداث الرنة إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد أن كانت تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم إلا وهل فيكم إلا الصلف والشنف وملق الإمام وعزم الأعداء، وهل انتم إلا كمرعى على دمنة أو كفضة على ملحودة إلا ساء ما قدمت أنفسكم إن سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون، أتبكون أي والله فأبكون وانكم والله احرباء بالبكاء فأبكون كثيراً واضحوا قليلاً.....) (24)

فقد استثمرت السيدة زنب عليها السلام بعض الآيات الخاصة للتلميح عن قصدها متكئة على قدرتها الإبداعية وكفاءتها اللغوية في بناء خطاب توجيهي ومنها التشبيه للإشارة إلى مقاصد متضمنة، وبناء التشبيه بما يلائم السياق ويخدم الفكرة تعدد من المهارات التي تعين المبدع في إيصال مقاصده، وقد استعانت به كثيراً ملكت زمامه ليدل على قدرتها البيانية. استطاعت السيدة زنب عليها السلام بهذه الكلمات أن تسجل في التاريخ الحقيقة التي كان يزيد وإتباعه يريدون إخفاءها. وكثيرهم الذين لا يعرفون إلى أين كانت تنتهي ثورة الحسين عليه السلام لو لم تكن زنب من ورائها. وقد أحييت بكلماتها كل قطرة من دم الحسين آلاف القلوب في تخليد اسم الحسين عليه السلام وضرب كل يزيد.

4- النداء:

يشكل النداء توجيهاً لأنه يحفز المرسل إليه الخطاب ويدفعه إلى اتخاذ ردة فعل باتجاه المرسل، وقد أستثمرت السيدة زنب عليها السلام ما وفره أسلوب النداء من القدرة على أنفتاح النص على التوجيه حسب ماتمليه الظروف السياقية المصاحبة للحدث، ونقصد بها ظروف وملابسات القضية الحسينية وكشف النقاب عن كثير من الأمر الخافية على الجميع التي أستغلها يزيد وأعوانه لتحريف مسار الحق إلا إن الحق واضح جلي.

بدأت السيدة زنب عليها السلام ببناء مؤثر متمثل بقولها (أظننت يا يزيد أنه حين أخذت علينا اقطار الأرض وأكناف السماء أصبحنا نساق كما يساق الأسارى إن بنا هوانا على الله، وبك عليه كرامة) (25)

لتبدأ بخطاب ندائي مؤثر توجي من خلاله بأستلزام الانتباه والاصغاء وتجعل السامع متيقظ لسماع ما يقال مشفوعاً بالاستفهام الذي يستلزم جواباً، مع الأفعال (ظننت، أخذت، أكناف، أصبحنا) المصاحبة للاستفهام الإنكاري شددت أنتباه السامع وألزمته التفكير والبحث عن أجابات، رغم المعرفة المسبقة بهذه الاجابات، إلا إنها عملت وبشكل مكثف على تذكير الطاغية يزيد ومن تبعه من الذين سيطرت عليهم نوازغ الشر بأمور تستلزم التذكير بأنهم اصحاب قضية سماوية يدافعون عنها حتى لو تطلب الأمر تقديم حياتهم ثمناً لها، فحمل بذلك النداء غرض تداولي هو التوجيه والإرشاد.

لنعلم الصورة أكثر بكشف خلفية العمل الاجرامي الذي قام به يزيد ويلعب النداء الدور الأكبر في هذا الكشف كما في قولها (أمن العدل، يا ابن الطلقاء، تخديرك

حرائرك وإمائك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدون بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حُماتهن حي، وكيف يُرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأركياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء، وكيف يستبطن في بُغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنان، والإخن والأضغان، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم..... وأهلوا وأستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تُشَل..... مُنتحياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكها بمخصرك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وإله

وسلم، ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تنادهم ، فلتردن وشيكا موردهم، ولتودن أنك شُلتت وبكمت ولم تكن قلت ماقلت، وفعلت ما فعلت..... اللهم خُذ بحقنا ، وأنتقم ممن ظلمنا ، وأحلل غضبك بمن سفك دماننا وقتل حُماننا..... ثم توجهت بالتوبيخ الى يزيد قائلة له (فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا جززت إلا لحملك، ولتردن على رسول الله بما تحملت من سفك دماء ذريته، وانتهكت من حُرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعئهم، ويأخذ بحقهم.... ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون، حسبك بالله حاكما، وبمحمد خصيما ، ويجبرائيل ظهيرا، وسيعلم من سوى لك ومكنك من رقاب المسلمين (أبوك معاوية) بُس للظالمين بدلا، وأيكم شر مكانا وأضعف جُندا، ولئن جرت علب الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعتك، وأستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء، هذه الأيادي تنطف من دماننا ، والأفواه تتحلل من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنناهب العوائل ، وتهفوها أمهات الفراعل ، ولئن اتخذتنا مغنما ، لتجدنا وشيكا مغرما ، حين لا تجد إلا ما قدمت وما ريك بظلام للعبيد ، فإلى الله المشتكى وعليه المعول ، فكذ كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحيننا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا ترحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد ، يوم ينادي المنادي :ألا لعنة الله على الظالمين ، فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله ، أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة ، إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل(26)

5-التوجيه غير المباشر:

تتعدد القوة الانجازية للجملة الواحدة التي قد تخرج الى اكثر من غرض أنجازي واحد، فقد تعطي الصيغة التركيبية معنى حرفي ظاهر، إلا أنها قد تخفي بين دلالاتها معنى آخر مضمير ، نحتاج الى تحليل سياق الكلام، والملايسات المصاحبة له للأستدلال عنه ، وهذا ما يطلق عليه مصطلح الفعل الكلامي غير المباشر، وفي الأفعال الكلامية نسق من القواعد الاستدلالية المرتبطة بقدرة المخاطب على تأويل مالم يصرح به المتكلم في الأفعال والاساليب المباشرة ويكون للسياق دوراً كبيراً في فهم وتأويل هذا النسق الاستدلالي ، أما عن طريق المعرفة المسبقة للمتخاطبين ، وعن طريق قوانين الخطاب وبخاصة مبدأ التخاطب حسب ما حدده غرايس.(27)

ويتم التوجيه غير المباشر عن طريق خروج اساليب التوجيهات من غرضها الأنجازي المتمثلة في محاولة المتكلم توجيه المخاطب الى فعل شيء ، وأنتقال الطلب الى دلالات تحويلية قد تكون مغايرة لدلالاته التي وضع لها.

وفي خطبتي السيدة زينب عليها السلام نجد نماذج متنوعة ومتعددة لتوجيه المخاطب عبر خروج اساليب التوجيه الطلبية عن معناها الحقيقي ودلالاتها التي وضعت لها الى معانٍ اخرى، مثل الانماط المتحولة عن النداء في قولها عليها السلام (يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر والخذل ، ألا فلا رقات العيرة، ولا هدأت الزفرة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلبا من بعد قوة أنكأنا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم هل فيكم إلا الصلفُ والعجبُ والشنفُ والكذبُ وملقُ الاماء وغمزُ الاعداء أو كمرعى على دمنة أو كفضة على ملحودة ، ألا بُس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون ، تبكون أحي ؟ أجل والله ، فأبكو فإنكم أحرى بالبكاء فأبكو كثيرا واضحكوا قليلا، فقد ألبيتم بعارها ومنيتم بشنارها ، ولن ترخصوها أبدا.....(28) النداء هنا فعل كلامي غير مباشر تحول من النداء الى معنى التحسر والاستغاثة والتهويل ، فيه تعبير عن حسرة وألم في نفس السيدة زينب عليها السلام لما رأت ما آل اليه حال الناس وعدم نصرتهم وخذلانهم أمامهم، أذ نشعر بتفجع السيدة زينب من هذا الحدث غير المتوقع، النداء جمع بين الحسرة الصادقة والتأثر المفجع الذي عبرت عنه بتلك النبرة الحزينة. وفي خطبتها في مجلس الطاغية يزيد تقول (ثم كذ كيدك واجهد جهدك ؟ فو الذي شرفنا بالوحي والكتاب والنبوة والانتحاب ، لا تدرك أمدنا ولا تبلغ غايتنا ، ولا تمحو ذكرنا ولا ترحض عنك عارنا. وهل رأيك الا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد ، يوم ينادي المنادي ألا لئن الظالم العادي ، والحمد لله الذي حكم لأولياناه بالسعادة وختم لأوصيائه ببلوغ الإرادة نقلهم الى الرحمة والرأفة والرضوان والمغفرة ، ولم يشق بهم غيرك ولا بتلى بهم سواك ونسأله أن يكمل لهم الأجر ويجزل لهم الثواب والذخر ونسأله حسن الخلافة وجميل الإنابة إنه رحيم ودود) (29) ، تحول الاستفهام من معناه الذي وضع له الى معنى آخر هو الدعاء ، والدعاء فعل كلامي غير مباشر خرج فيه الاستفهام الى مخرج الدعاء ، فالسيدة زينب في قولها (وهل رأيك إلا فند وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد) خرجت ببراعتها البلاغية الاستفهام وحولته الى دعاء واضح.

وفي قولها (اللهم خُذ بحقنا وانتقم من ظالمنا ، وأحلل غضبك بمن سفك دماننا ، ونقص دماننا ، وقتل حُماننا ، وهتك عنا سدولنا ، وفعلت فعلتك التي فعلت وما فريت إلا جلدك ، وما جززت إلا لحملك، وسترد على رسول الله بما تحملت من ذريته، وانتهكت من حرمة، وسفكت من دماء عترته ولحمته ، حيث يجمع به شملهم ويلم به شعئهم وينتقم من ظالمهم ويأخذ لهم بحقهم من أعدائهم) (30). استفهام يفيد التعجب في قولها (وما فريت إلا جلدك ، وما جززت إلا لحملك).

وفي قولها عليها السلام (ألا بُس ما قدمت لكم نفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون ، تبكون أحي ؟ أجل، والله فأبكو فإنكم أحرى بالبكاء ، فأبكو كثيرا واضحكوا قليلا فقد بليتتم بعارها ومنيتم بشنارها ولن ترخصوها أبدا) (31) تحول واضح في الفعل الكلامي

غير المباشر في قولها (فأبكو فأنكم أخرى بالبكاء، فأبكو كثيرا وضحكوا قليلا) إذ تحولت أفعال الأمر إلى معنى التحذير والتنبيه من الفعل الذي قاموا به وقتلهم الإمام الحسين عليه السلام.

الخاتمة والنتائج:

يطمئن قلب زينب إلى مستقبل مشرق يكون بعد انتهاء كيد الكائدين، وجولة الشياطين وبقيام دولة الله. وهذا حين ينادي منادٍ رباني: ألا لعن الله الظالم العادي. وبهذا يتحقق اللعن الواقعي للظالمين، هنا تذوب قوى الشياطين في سطح الأرض ويموت الباطل، ويبلغ العالم مبلغ شبابيه بعد مضي طفولته، ويحكم العقل والعلم على النفوس البشرية بعد حكومة شيطنة الطفولة، وجهالة الصغر علمهم، وبذلك يجمع الله شمل المؤمنين ويلم شعثهم وينتقم من ظالمهم، ويأخذ لهم بحقهم من اعدائهم. وأنهت السيدة خطبتها في مجلس يزيد بقولها الحمد: ((الحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة وألخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة أنه رحيم ودودٌ وحسبنا الله ونعم الوكيل)). فكان ترسيخ واضح لرحيمهم الدنيا والآخرة في مقابل خسارة الدنيا والآخرة لزيد.

لتكون خطبتها خير موجه ومنمد بحكومة الطيش والجهالة وترسيخ واضح لهمجية الخط الزيدي في كل زمان ومكان، زينب راسخة في قلب كل مؤمن ومؤمنة تمنحه الصبر والتوجيه والثبات على الشدائد، والقدرة على مواجهة الصعاب، والتحلي بالمسؤولية لبناء مجتمع قوي قادر على الوقوف بوجه الفساد، والجور، والتميش مجتمع قواعده متينة ليستطيع انشاء أجيال حسنين وزينبيات يسهمون في ترسيخ قواعد النهج النبوي في بناء مجتمع أنساني قواعده متينة وركائزه قوية.

لتتجلى أمام أعيننا مجموعة من النتائج التي توصلنا لها خلال الدراسة منها:

1- تعدى نشاط المنهج التداولي من وصف البنى اللغوية وأشكالها الظاهرة إلى دراسة التواصل الانساني ومجالات استعمال اللغة وانتاج الخطاب من ثم المساهمة الفعالة في تداوله.

2- هناك مقاصد مباشرة وأخرى غير مباشرة ماثورة في نسيج الخطبتين وعند تسليط الضوء وكشف النقاب عنها تبين دورها الفعال في عملية التواصل اللغوي بين الاجيال وأستلهاها وتطبيقها في الواقع المعاصر.

3- تجلت براعة السيدة زينب عليها السلام وقدرتها الابلاغية وبراعتها التداولية في أستثمار آليات اللغة لتوجيه المرسل لهم الخطاب واستمالهم واقناعهم عبر توظيف الاستراتيجيات اللغوية المتضمنة في أساليب اللغة.

4- ولكي تُحقق هذه الإستراتيجية فعلها التوجيهي في النظام اللغوي لا بد أن تتوفر مقومات لدعم عملية التوجيه منها (سلطة المرسل) ولكون السيدة وما تتمتع به من السيادة والمكانة بين أهلها أتاح ذلك فرصة إلى فرض سيطرتها على الخطاب وبالتالي على المخاطب مما أعطى امكانية التأثير فيه وجعل خطابها موجهًا مميزًا حقق به المنفعة للمرسل إليه إذ أن العلاقة السلطوية بين المرسل والمرسل إليه مؤثر مهم لنجاح فعل التوجيه.

5- تنوعت آليات التوجيه في خطبتي السيدة زينب عليها السلام بين الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتوجيه بذكر العقاب، وأكثر الوسائل التوجيهية هي الأمر، تليها النداء مما يبين إمكانية السيدة زينب عليها السلام وقدرة البلاغية التي ورثتها من أبيها أمير المؤمنين في أستثمار معطيات اللغة وما تتيح من استراتيجيات تعمل على توجيه الخطاب لتحقيق التواصل بين المتكلم والمتلقي.

6- برعت السيدة زينب عليها السلام بحسب قدرتها الادعائية على أستثمار أفعال التوجيه غير المباشرة في خطبتيها مما أعطى صورة واضحة المعالم عن كفاءتها في أنجاز الخطاب، كذلك أتاح فرصة الكشف عن كفاءة المتلقي في عمليتي الفهم والتأويل لمثل هذه الخطابات.

السلام عليك يا سفيرة الحق والانسانية

الهوامش:

- 1- مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر اشوب المازندراني، طبعه الراشد بن علي المحلتي الحائري سنة 1313هـ، 261-3.
- 2- المرأة في الاسلام من محاضرات الشيخ احمد الوائلي، اعداد-مصطفى مرهون، منشورات شركة دار المصطفى، ص28.
- 3- م، ن، ص28.
- 4- وفيات الأئمة، تأليف مراجع من العلماء الاعلام، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1-1991، ص467-468.
- 5- ينظر: تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، 224-310هـ، تح/محمد ابو الفضل ابراهيم، ط2، دار المعارف مصر، ص4-ص319.
- 6- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت-لبنان، ط1، 1955، ج1، مادة خطب.
- 7- ينظر: الخطاب الشرعي وطرق استنماره، إدريس حمادي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص17.
- 8- م، ن، ص21.
- 9- الأحكام في أصول الأحكام، الأمدي، تر: أحمد محمد شاكر، ط1، 1980، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ج1، ص136.

- 10- القرآن الكريم ،سورة ص
- 11- ينظر: إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004، ص35.
- 12- ينظر من، ص36
- 13- ينظر: استراتيجيات الخطاب في النشيد الوطني، دراسة تداولية، يونس فضيلة، رسالة ماجستير جامعة مولود معمري تيزي، وزو الجزائر، ص43.
- 14- ينظر: استراتيجيات الخطاب (الشهري)، ص322
- 15- ينظر: التواصل اللغوي ووظائف اللغة في الالسنية (علم اللغة الحديث قراءة تمهيدية)رومان جاكبسون، ميشال زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت-لبنان، 1985، ص52
- 16- مفتاح العلوم للسكاكي، ضبطه نعيم زوزور، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان ، ط1987، 2، ص83.
- 17- م، ص132
- 18- التداولية عند العرب، د.مسعود صحراوي، دار الطليعة ، بيروت-لبنان، ط2005، 1، ص108
- 19- ينظر: مفتاح العلوم السكاكي، ص133
- 20- بلاغات النساء ،ابن طيفور ، ص16
- 21- مفتاح العلوم، السكاكي، ص133
- 22- بلاغات النساء، ص15
- 23- ينظر: استراتيجيات الخطاب (الشهري)، ص360.
- 24- بلاغات النساء ، ص15.
- 25- المصدر نفسه ص16 .
- 26- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- 27- نظرية الأفعال الكلامية وإعادة قراءة التراث العربي ،د.عمر بلخير، مجلة الأثر، عدد خاص أشتغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب-الجزائر، ص70،
- 28- بلاغات النساء ص18.
- 29- المصدر نفسه، ص18.
- 30_المصدر نفسه والصفحة نفسها
- 31-المصدر نفسه والصفحة نفسها
- المصادر والمراجع:**
- 1-القران الكريم
- 2- الأحكام في أصول الأحكام، الأمدي، تر: أحمد محمد شاكر، ط1، 1980، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ج1.
- 3- إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- 4- استراتيجيات الخطاب في النشيد الوطني، دراسة تداولية، يونس فضيلة، رسالة ماجستير جامعة مولود معمري تيزي، وزو الجزائر.
- 5-بلاغات النساء ،ابوالفضل أحمد بن أبي طاهر ابن طيفور (ت208)، صححه وشرحه احمد الالفي، القاهرة، 1908.
- 6- تاريخ الطبري-تاريخ الرسل والملوك ،لابي جعفر محمد بن جرير الطبري224-310هـ، تح/محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط2، دار المعارف مصر
- 7-التداولية عند العرب، د.مسعود صحراوي، دار الطليعة ، بيروت-لبنان، ط1، 2005.
- 8- التواصل اللغوي ووظائف اللغة في الالسنية (علم اللغة الحديث قراءة تمهيدية)رومان جاكبسون، ميشال زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت-لبنان، 1985
- 9- الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
- 10- لسان العرب ،ابن منظور ،دار صادر، بيروت-لبنان ، ط1، 1955.
- 11- المرأة في الإسلام من محاضرات الشيخ احمد الوائلي، اعداد-مصطفى مرهون، منشورات شركة دار المصطفى.
- 12- مفتاح العلوم للسكاكي، ضبطه نعيم زوزور، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان ، ط1987، 2.
- 13-مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر اشوب المازندارني، طبعه الراشد بن علي المحلاتي الحايبي سنة 1313هـ.
- 14- نظرية الافعال الكلامية وإعادة قراءة التراث العربي ،د.عمر بلخير، مجلة الأثر، عدد خاص أشتغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب-الجزائر .
- 15-وفيات الأئمة، تأليف مراجع من العلماء الاعلام ،دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1-1991.